الدين بين النظرة الشرعية والنظرة الموضوعية

أ/ عبد الحميد بن الشيخ.
أستاذ بمعهد الترجمة – جامعة الجزائر 02-

مقدمة:

تختلف النظرة الدينية إلى الحياة والكون والطبيعة وكل ما يحيط بنا، باختلاف الثقافات التي تتحكم في الإنسان وتوجه سلوكه وطريقة تفكيره واهتماماته. وهذه الأمور هي التي توجهه أو تجعله يطرح أسئلة تتعلق بمصير الكون، والهدف من وجود الإنسان في هذا الكون، ومن يتحكم في الكون، وهل هناك قانون يحكم هذا الكون بصورة عامة، وما طبيعة هذا القانون والحكمة منه؟ وماذا ينبغي للإنسان القيام به لبلوغ هدفه؟ وهل يستطيع بلوغ كل أهدافه؟ أم إنه مقيد بقيود تجعله كالورقة في مهب الريح.

والدين يؤكد أنه يستطيع أن يجيب عن كل هذه الأسئلة، فما هو هذا الدين الذي يضمن الإجابة عن كل ذلك؟ وهل هناك اتفاق حول مفهوم الدين كمصطلح يردده العامة والخاصة، المثقف والجاهل، الملحد والمؤمن؟

لا شك أن الإجابة عن هذه الأسئلة تتضح من خلال المنظور الذي ينظر من خلاله الإنسان إلى الدين، وسنحاول الإجابة عن بعض التساؤلات بصورة موجزة نحاول من خلالها تلخيص جملة من الآراء حول كل ما ذكر نستهله بتعريف الدين بشكل عام.

تعريف الدين:

الدين هو كل ما يتعلق بالمقدس بمعنى القوة فوق الطبيعية العليا السامية التي تعد بالخلاص، وكل ما يترجم على أرض الواقع بمعتقدات تعبر عن الإيمان بعقيدة ظاهرة وبطقوس تهدف إلى الخضوع لهذه القوة غير الطبيعية العليا. غير أن هذه القوة السامية لها علاقة بالروح الإنسانية، ولهذا نقول بأن للمقدس قطبين أحدهما القوة غير الطبيعية السامية،

والآخر هو الروح الإنسانية، والعلاقة بينهما هي علاقة خضوع الروح لهذه القوة. وكذلك يعبر عن الدين في اللغة بكونه الخضوع والطاعة.

أشكال الدين:

للدين أشكال متعددة لا يمكن حصرها لأنها تتعلق بوجود الإنسان على سطح الأرض منذ أزمان سحيقة وعلاقة هذا الوجود بالظروف الاجتماعية والاقتصادية وكل ما ارتبط بهذه الظروف وأثر على حياته بطريقة أو بأخرى، تجعله يحس بالضعف ويلتجئ بالتالي إلى قوة غير طبيعية يسعى من خلالها إلى تحقيق مطالبه، وأشكال الدين المتعددة نلاحظها خلال تطور البشرية عبر مختلف العصور، وسنحاول التعرض للرؤية الشرعية الإسلامية للدين والأسس الإسلامية التي تعتمد عليها هذه الرؤية قبل التعرض للرؤية الموضوعية ممثلة في مختلف الآراء التي تعالج الدين باعتباره مطلبا إنسانيا ملحا.

الدين وفق المنظور الشرعي:

جاء في تفسير ابن كثير للآية ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ الآية 19. من سورة آل عمران. "إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل"[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الآية 85 من آل عمران.

فالدين في المنظور الشرعي هو اتباع الإسلام الذي هو آخر الأديان السماوية، والانقياد لتعاليمه، فيأتمر بأوامره أي يستجيب لأوامر الله التي جاءت في الإسلام، وينتهي بنواهيه، فيعرف ويؤمن ويعتقد اعتقادا جازما أن الخير كل الخير، فيما أمر به الله تعالى في كتابه، وجاء في سنة نبيه محمد ﷺ، والشر كل الشر فيما نهى عنه.

والدخول في الإسلام يكون بقول "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمّدا رسول الله" فإذا قالها الإنسان سمي مسلما، بمعنى أنه أسلم وجهه لله وأصبح موحّدا له، وعند علماء الشريعة تعتبر هذه الجملة الفيصل بين الكفر والإيمان.

---

[1] ابن كثير، الحافظ إسماعيل. تفسير القرآن العظيم. الجزء الثاني، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثامنة، بيروت 1406 هـ - 1986م، ص: 22.

والإيمان في الدين يقتضي الإيمان بيوم الدين الذي هو "الجزاء والحساب كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ وقال ﴿ أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ أي مجزيون محاسبون، وفي الحديث: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت"، أي حاسب نفسه كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾[2] الآية 18 من سورة الحاقة.

إن الدين وفق هذه النظرة يقتضي الإيمان بالغيب الذي هو مصدر الإيمان بيوم الجزاء الذي تحدثنا عنه، فالإيمان بالغيب "هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس، أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس"[3].

فإذا آمن الإنسان بالله وحده، إيمانا راسخا، انقاد لأوامره ونواهيه غيبا، فيتقبل التشريع السماوي، ويرضخ لحكم الله ورسوله دون عناد أو إكراه وإنما برضى النفس وإخلاصها، قال تعالى في الآية 8 من سورة المزمل: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾، قال الفراء في شرحها أخلص لله إخلاصا، ويقال للعابد إذا ترك كل شيء، وأقبل على العبادة، قد تبتل، أي قطع كل شيء إلا أمر الله وطاعته"[4].

والإخلاص في العبادة لله هو عنوان التدين الحقيقي في الإسلام فتجعل الإنسان يرفض كل شوائب الدنيا إذا خير بينها وبين عبادة الله، قال الفراء في شرح قوله عز وجل: ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ الآية 2 من سورة الكافرون، قالوا للعباس بن عبد المطلب عم النبي، ﷺ: قل لابن أخيك يستلم صنما من أصنامنا فنتبعه، فأخبره بذلك العباس، فأتاهم النبي ﷺ وهم في حلقة، فاقترأ عليهم هذه السورة، فيئسوا منه وآذوه"[5].

الدين في الشريعة يقتضي الإيمان بالوحي:

الوحي في اللغة هو الإيماء وأصل الوحي الإشارة السريعة، فهو إعلام خفي سريع خاص بمن يوجه إليه لا يتعدى إلى غيره.

---

[2] المرجع السابق، الجزء الأول ص: 46.

[3] قطب، سيد. في ظلال القرآن – المجلد الأول - دار الشروق، الطبعة العاشرة، بيروت، 1402هـ - 1982م. ص: 39.

[4] الفراء، أبي زكريا يحيى بن زياد. معاني القرآن. إعداد ودراسة: إبراهيم الدسوقي عبد العزيز، إشراف ومراجعة: عبد الصبور شاهين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الأولى القاهرة، 1989، ص: 350.

[5] المرجع السابق، ص 351.

والوحي في الشريعة الإسلامية يختلف عما يسميه البعض "الوحي النفسي وهو الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية، وقد أثبته بعض علماء الإفرنج لنبينا ﷺ كغيره فقالوا: إن محمدا يستحيل أن يكون كاذبا فيما دعا إليه من الدين القويم والشرع العادل والأدب السامي، وصوره من لا يؤمنون بعالم الغيب منهم أو باتصال عالم الشهادة به، بأن معلوماته وأفكاره وآماله ولدت له إلهاما فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية، العالية، على مخيلته السامية، وانعكس اعتقاده على بصره، فرأى الملك ماثلا له، وعلى سمعه فوعى ما حدثه به"[6].

فهذا الكلام مردود على أصحابه لأن الرسول عليه الصلاة والسلام معروف بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يسبق له أن اطلع على كتب الأنبياء ولا غيرها من الكتب كما أنه لم يلتق بالعلماء والمفكرين فيأخذ منهم، فكيف يأتي بكلام معجز قديما وحديثا، فلم يبق إلا أنه وحي من عند الله تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ الآية 04 من سورة النجم.

ويقتضي الإيمان بالوحي الإلهي، الإيمان والاعتقاد في أن الإسلام دين الفطرة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الآية 30 من سورة الروم.

و"الحنيف صفة من الحنف (بالتحريك) وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة، وعن الضلالة إلى الهدى، وعن الباطل إلى الحق، ويقابله الزيغ وهو الميل عن الحق إلى الباطل إلخ، وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلة الإنسانية الجامعة بين الحياتين: الجسمانية الحيوانية، والروحانية الملكية... وما أودع فيها من غريزة الدين المطلق الذي هو الشعور الوجداني بسلطان غيبي فوق الكون والسنن والأسباب التي قام بها نظام كل شيء في العالم"[7].

والسبب في كل ذلك هو أن الإسلام موجه للبشرية جمعاء، فلا يوجه دين للبشرية كلها إذا لم يكن دين الفطرة ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الآية 158، سورة الأعراف.

وعلامة الإيمان بالله إيمانا تاما راسخا هو الدعاء لأن الدعاء مخ العبادة، قال رسول الله ﷺ: "الدعاء هو العبادة" ولا يدعى إلا المعبود.

---

[6] رضا، محمد رشيد. الوحي المحمدي. شركة الطباعة الفنية المتحدة، الطبعة السادسة، القاهرة، 1960، ص ص: 35 – 36.

[7] عبده، محمد. الإسلام والنصرانية بين العلم والمدينة. دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، بيروت 1983، ص: 72.

-العقل أساس الإيمان:

قال الإمام محمد عبده: "فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلي. والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح وذلك أن الفقهاء والمفكرين اتفق أغلبهم على أنه إذ تعارض العقل والنقل، أخذ بما دل عليه العقل. وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه، والطريق الثانية: تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل"[8].

وآيات القرآن الكريم كلها تحث على إمعان النظر في الكون وما يحيط به كدليل على وجود الله وربوبيته وقوته ووحدانيته التي يشكك فيها البعض، ومنها ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾، ﴿ أَفَلَا تَنَفَكَّرُونَ ﴾، وهي كلها دعاوى إلى نبذ الجمود والتطرف وتحكيم العقل الذي هو أساس التسامح "فإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر"[9].

وتقديم العقل في الحكم على الأشياء في دين الإسلام، هو الدليل القاطع على دعوة الإسلام إلى الاجتهاد الذي دعا إليه شيخ الإسلام ابن تيمية بصورة ربانية تدل على إيمان صاحبها ورضوخه لمشيئة الله رضوخا تاما "فقد كان متحليا باليقين والمشاهدة، التي بعثت فيه صفة من الافتقار والاضطرار، والعبودية والإنابة. وقد روي أنه إذا أشكلت عليه مسألة أو صعب فهم آية، التجأ إلى جامع في مكان موحش. ووضع جبهته على التراب وردد قوله: "يا معلم إبراهيم فهمني"[10].

إن خلاصة كلام ابن تيمية هي أن الإسلام، كونه دينا سماويا، يربط بين الدعوة إلى التعبد والدعوة إلى الاهتمام بمسائل الدنيا التي أباحها الله لعباده وحثهم على الاستمتاع بها في غير إسراف ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ الآية 31 من سورة الأعراف.

وربط الإمام ابن تيمية العمل بالعبادة وأصر على تحكيم العقل فقال: "وكذلك لفظ العقل، فلا يسمى عاقلا إلا من عرف الخير فطلبه، والشر فتركه... ومتى فعل ما يعلم أنه يضره، فمثل هذا، ما له عقل، فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به

---

[8] المرجع السابق، ص: 74.

[9] نفس المرجع، ص: 75.

[10] الندوى، أبو الحسن علي الحسني. ربانية لا رهبانية. مؤسسة الإسراء للنشر والتوزيع، الطبعة السادسة، قسنطينة، 1991، ص: 79.

فالعلم به يستلزم خشيته، وخشيته تستلزم طاعته، فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه"[11].

ورأي ابن تيمية يستند إلى قواعد أساسية في الشريعة الإسلامية التي هي القانون المقدس في الإسلام، وهي أمر الله لعباده في الأرض، ومصادر التشريع الأساسية هي: القرآن والسنة والقياس والإجماع. والعقلانية في الإسلام مستمدة من الاجتهاد الذي أمر به الله عباده المؤمنين من خلال الآيات الداعية إلى تحكيم العقل كما سبق وأن أشرنا، وأمر به الرسول ﷺ من خلال قوله: "أنتم أدرى بشؤون دنياكم" "واعتمادا على كل ذلك قام الفقهاء في الإسلام باستنباط "مجموعة من التشريعات الفكرية حتى يتسنى تطبيق الشريعة على الحالات المماثلة التي لم يرد فيها نص من الكتاب والسنة... فلفظ "فقه" يفيد أنه علم الفهم ومهمة أصول الفقه وضع الأسس العقلية التي تحكمه من استنباط القواعد"[12].

وبناء على كل ذلك كان عمل الفقهاء في الإسلام، البحث عن صيغ عقلانية لتطبيق أحكام لم ينص عليها الشرع صراحة، اعتمادا على الإجماع والقياس باعتبارهما من مصادر التشريع، أما إذا وجد آية محكمة، أو حديثا للرسول ﷺ أو إجماع المسلمين حول مسألة معينة، فلا مجال للاجتهاد، من أجل غلق الباب أمام الخلاف الذي ينبذه الإسلام أي الخلاف الذي يؤدي إلى الفتنة.

وبناء على كل ذلك فإن تشجيع الاجتهاد كان معبرا عن البواعث العقلانية في الفكر الإسلامي في إطار منهجي متسق من المعرفة، حتى لا يضل المؤمنون عن الطريق المستقيم الذي يدعو المؤمن الله أن يهديه إليه في كل صلاة من خلال قراءة سورة الفاتحة التي لا تجوز الصلاة من دونها.

الدين وفق المنظور الموضوعي:

الدين بوجه عام هو نظام اجتماعي يقوم على وجود موجود أو أكثر أو قوى فوق الطبيعة، ويبين العلاقة بين الإنسان وبين تلك الموجودات وتحت راية ثقافة معينة تتشكل هذه الفكرة لتصبح نمطا أو أنماطا اجتماعية أو تنظيما اجتماعيا، وكل دين يستلزم ثلاثة عناصر رئيسية:

---

[11] ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. كتاب الإيمان. تحقيق: حسين يوسف الغزال، دار إحياء العلوم، الطبعة الثانية، بيروت، 1985، ص ص: 46 – 47.

[12] هاف، توبي. فجر العلم الحديث. ترجمة: أحمد محمود صبحي، مطابع الرسالة، الكويت، 1997، ص: 138.

1– تصوير العالم المحسوس وعالم ما فوق الطبيعة مع تصوير الفوارق بينهما أو بين ما يشتملان عليه من موجودات وبالتالي التفرقة بين ما هو مادي وما هو روحي.

2– آراء ومذاهب تقوم على رسم العلاقات بين العالم المادي والعالم العلوي، والواجبات والالتزامات المتبادلة بينهما ومن ثم يشتمل كل دين على معتقدات كلية تسمى الإيمان وعلى طقوس أي أعمال يمارسها الأفراد تجاه القوى العلوية.

3 – مجموعة من أنماط السلوك تهدف إلى جعل الأفراد يسيرون في انسجام مع قوى ما فوق الطبيعة ويخضعون للثواب والعقاب على ما يعملون في الدنيا والآخرة[13].

ويميز ديتس Dittes في 1969 ووولف Wulff في 1991 بين التعريفات الاسمية التي تعرف الدين بمحتواه الفريد ، كالاتجاه نحو الله أو الإيمان بالله والخبرات الروحية والصلاة والذهاب إلى أماكن العبادة والتعريفات الوظيفية التي تحدد الدين من خلال العملية الفريدة وهو ما يفعله الفرد للإجابة عن الأسئلة الوجودية وعن معنى وهدف حياة الفرد والموت وكيفية تعامل الفرد مع الآخرين وما شابه ذلك[14].

تأثير الدين في الحياة النفسية للفرد:

بينت البحوث الحديثة في علم النفس أن مقاييس الاعتقاد أو الإيمان بالله وما بعد الحياة وإيجابية الاتجاهات الدينية ومعدل الصلاة وحضور أماكن العبادة قد ارتبطت بالعمر والجنس والرضا عن الحياة والعصابية وتقدير الذات ووجهة الضبط والدوجماطيقية* والتعصب وسلوك المساعدة[15].

وقد عبر فرويد عن أن الدين قد وجد من أجل الوفاء بحاجات الناس إلى المعنى والأمن، وتلك النظرة لها تاريخ طويل في التفكير الغربي وحتى الآن. وفي إطار النظرية العامة التي ترى أن المعتقدات الدينية تزودنا بالمعنى وتقدير الذات. أثبتت نظرية التنافر المعرفي فائدتها في تفسير سبب حفاظ الفرد على معتقداته الدينية وتركيزها في وجه الأدلة المعارضة.

---

[13] سند إبراهيم، رزق. دراسة في سيكولوجية النصاب. رسالة دكتوراه، مكتبة كلية الآداب بجامعة عين شمس، القاهرة، 1985، ص: 270.

[14] المرجع السابق ص: 18.

[*] الدوجماطيقية: مصطلح يعني العقيدة، حيث يؤمن الإنسان بمبدأ ويتمسك به دون الاستناد إلى دليل جازم.

[15] المرجع السابق ص: 18.

وقد وافق جوردن ألبورت على وجهة نظر فرويد فيما يتعلق بحماية الدين للذات، ولكن ألبورت رسم صورة أكثر تعقيدا فقد ميز بين التدين العرضي الظاهري والتدين الداخلي فقد أراد ألبورت أن يميز بين أولئك الذين يعمل الدين لديهم على الوفاء بنتائج تخدم الذات، والذين يكون الدين لديهم غاية في حد ذاته.

وقد أثبتت كثير من البحوث أن تلك التفرقة مهمة في فهم تأثير الدين على الصحة النفسية والتعصب وسلوك المساعدة. فقد تتبع إريك إريكسون Erik Erikson الصراعات التي يواجهها الفرد في النمو النفسي الاجتماعي أثناء فحصه للوظائف النفسية الدينامية للدين [16].

وفي هذا الإطار نجد هناك من يعتبر "أن الخطر المادي الذي يهدد الأفراد يولد الحاجة إلى الإيمان بقوة عليا، فإذا ما زاد جانب كبير من الخوف والقلق حل محله شعور بالاطمئنان إلى استمرار الحياة في ظروف آمنة يحف بها الرخاء، وإن هذا ينال من أهمية الدور التقليدي الذي تؤديه الأديان، وعلى ضوء ذلك تسود لدى الجيل الجديد نزعة من عدم التقيد والالتزام بكثير من الأوامر والنواهي الدينية"[17].

ولا شك أننا نلاحظ في الحياة الاجتماعية اليومية التي نعيشها أنه أثناء الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى أثناء حدوث الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والأعاصير أو غير ذلك، نلاحظ أن الناس يكثر لديهم الخوف والقلق فيجعلهم ذلك يلجؤون إلى الدين للاحتماء به، أما إذا زال الخطر واطمأن الإنسان بحياته فنجده أقل تدينا وأكثر انغماسا في شهوات الدنيا.

أثر الدين الاجتماعي:

إذا لم ننظر من ناحية تأثير الدين على الحياة النفسية للفرد ونظرنا إلى آثار الدين الاجتماعية فإننا نلاحظ أن الأديان كلها تعتبر أنساقا للمعتقدات والممارسات، فالدين بالإضافة إلى كونه ظاهرة سيكولوجية فإنه ظاهرة اجتماعية، طالما أنه يركز بالضرورة على الجماعة عند تطوير الفكرة الدينية وفي تعليم المعارف الدينية والعمل على استمرارها، فباعتباره نسقا من المعتقدات والممارسات والقيم الفلسفية المتصلة بتحديد ما هو مقدس، وبفهم الحياة والتخلص من مشكلات الوجود الإنساني، نجد الفرد يدخر الدين لمواجهة تعقيدات الحياة الاجتماعية، ولذلك نجد "أن الدين يهتم بجميع الأشخاص من كل العصور، بغض النظر عن السن أو النوع أو المكانة

[16] نفس المرجع. ص:19.

[17] kamel, Aboulmajd. " la crise des valeurs et ses manifestations sociales et familiales", la crise des valeurs et le rôle de la famille dans l'evolution de société contemporaire, session de printemps, Rabat, avril 2001, p: 119.

الاجتماعية. وجدير بالذكر أن مفهوم طريق الخلاص قد يجعل الإنسان على ارتباط دائم بكل ما تمليه عليه القيم الاجتماعية العصرية المحدودة أو قد يعلمه الحكمة ويمده بالوسائل التي يستطيع بواسطتها تحرير ذاته من الجماعات والقيم العصرية، أي يمنحه حرية تحقيق القيم التي تسمو على مطالب الحاضر الاجتماعي❖[18].

ولذلك نجد ماكس فيبر يرى أن الدين يتضمن بالضرورة جانبا أخلاقيا وأن هذه الأخلاقيات الدينية هي نتاج التفاعل بين الموجهات الدينية الرسمية والظروف الاجتماعية.

ومن الملاحظ أن المعتقدات الدينية تختلف من دين إلى آخر وأحيانا نجدها تتفاوت داخل الدين الواحد طبقا لتنوع التجارب وتعددها، فقد تعتبر ثانوية عند الكثيرين عكس البعض الآخر.

والمعتقدات الشعبية ترتبط بشدة بالدين وتجد مرتعا لها، في ظل عدم القدرة على التكيف مع ظروف المجتمع المستجدة، وعدم القدرة على تلبية المطالب الاجتماعية بالدرجة الأولى، فيحاول الإنسان حينها التكيف مع بيئته الاجتماعية طالما أن الدين يحتوي على وظيفة تفسير الشر والموت والظلم والمعاناة ويقدم إجابات روحية لاهتمامات الإنسان المطلقة.

إن الدين وفق هذا المنظور "يمثل ملجأ للإنسان، حيث يجد فيه مخرجا من مشكلاته، ويجد فيه السند الذي يحقق له الشعور بالأمن الذي فقده بسبب الصراعات التي تدور في نفسه"[19].

ربط التفسير الديني بالخرافة:

إن الناس يتلمسون بواسطة الدين معنى وقيمة للحياة، ويستغل الدين من هذا الباب بربطه بالخرافات اعتمادا على معتقدات شعبية غير قابلة للتفسير العقلاني، فالناس يربطون بين الخرافة والدين حينما يستغلون وجود بعض الحقائق الدينية الغيبية كالروح مثلا ووجود بعض النصوص الدينية التي تتحدث عن السحر والحسد وغيرها لكي يدافعوا بحرارة عن حقيقة الظواهر الخرافية مؤكدين أن الدين نفسه يدعمها، و"هذا الاتجاه من أخطر الأشياء لأنه يستغل عمق الإيمان الديني من أجل تأكيد الفكر الخرافي، ولأنه يضع الدين بلا مبرر في

---

[18] مراد، عبد الفتاح. موسوعة البحث العلمي وإعداد الوسائل والأبحاث والمؤلفات الإسكندرية، ص: 1223.

[19] عيسوي، عبد الرحمن محمد. دراسات في علم النفس الاجتماعي. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1974، ص: 424.

مواجهة العلم ويضع عقول الناس في مواجهتها معا، فتقف حائرة بين عقيدة متأصلة فيها وبين منهج علمي تثبت صحته على أرض الواقع العلمي في كل لحظة""[20].

وهذا الكلام يؤدي بنا إلى القول أن المعتقدات الشعبية تستفيد من عمق وثبات المعتقدات الدينية في اكتساب مصداقية وقبول لدى الإنسان.

ولكن نلاحظ أن هناك من يرى أن الدين يناهض الخرافة ويحاربها وأن هناك منهجا علميا في الدين يأمر بالعلم واستعمال العقل وينادي بحرية الفكر وحرية العقيدة وحرية الاقتناع وحرية الجدال والمطالبة بالدليل المقنع وينادي بالاقتناع عن طريق البرهان العقلي والعمل"[21].

ولذلك نجد كثيرا من رجال الدين يتخذون مواقف معينة من المعتقدات الشعبية، لأنهم يدركون في أغلب الأحيان مدى عمق التعارض بين الموقف الأساسي للعقيدة الدينية التي يعرفونها ويؤمنون بها، وبين الموقف الأساسي الذي تنهض عليه تلك المعتقدات الشعبية، وفق ذلك نجدهم يعرفون مدى تأصل وترسخ تلك المعتقدات في صدور الناس، خاصة منهم الطبقات الشعبية، وهم ينزعجون أكثر حينما يجدون طبقات متعلمة وفئات تحسب على التقدم والمعاصرة تسلك سلوكات اجتماعية تدل على تأثير المعتقدات الشعبية فيهم.

ولهذا فهم يحاربون المعتقدات الشعبية كما يحاربها مفكرو التنوير ودعاة النهضة، لأنهم يعتبرونها عائقا أمام التقدم والرقي.

والطبقات الشعبية كثيرا ما تدرك حقيقة معارضة رجال الدين والمستنيرين لسلوكاتهم فيحاولون إضفاء الطابع الديني على هذه المعتقدات وذلك بسبب تأثير الدين في حياة الناس وانصياعهم لأوامره والخوف من المجاهرة بمعاداته، رغم أن سلوكاتهم قد تدل على عدم عقلانيتهم، وعلى أنها قد تعادي روح العلم والمدنية.

ولعل ذلك راجع إلى رسوخ الدين في الضمير الجمعي أكثر من رسوخ العلم والحضارة بمختلف مدلولاتها الثقافية الأخرى، ولذلك نجد أرنست رينان يقول في كتابه، (تاريخ الأديان): "من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نعدّه من ملاذ الحياة ونعيمها. ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو

---

[20] زكريا، فؤاد. التفكير العلمي. – سلسلة عالم المعرفة – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص: 60.

[21] عبد القادر طه، فرج. موسوعة علم النفس والتحليل النفسي. دار سعاد الصباح، الطبعة الأولى، الكويت، ص: 31 – 43.

يتلاشى بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الطينية"[22].

وهذه النظرة تعبر عن رفض فكرة الماديين العصريين الذين يرون أن الدين والعلم نقيضان لا يجتمعان وضدان لا يتفقان بسبب قصرهم الكون على المحسوسات، وأنكروا ما وراءها جملة وتفصيلا، فلا روح ولا خلود ولا ملائكة ولا غيرها من العوالم الغيبية، خاصة وأن الكثير من الفلاسفة يربطون بين فكرة "الدين" وفكرة "فوق الطبيعي" فيرون أن الدين هو تفكر في كل ما يتأبى على العقل العلمي والتفكير الواضح. يقول هربرت سبنسر "إن الأديان على قدر اختلافها في عقائدها المعلنة، تتفق ضمنيا في إيمانها بأن وجود الكون هو سر يتطلب التفسير" ولذا فإن الدين بالنسبة إليه هو: "الاعتقاد بالحضور الفائق لشيء غامض وعصي على الفهم"، ويدور تعريف ماكس موللر (1822م – 1900م)، حول الفكرة نفسها فيقول في كتابه "نحو علم للدين" "إن الدين هو كدح من أجل تصور ما لا يمكن تصوره، وقول ما لا يمكن التعبير عنه، إنه توق إلى اللانهائي")"[23].

وهذه الفكرة تعبر عن مادية أصحابها وعدم إيمانهم بما لا يمكن التدليل عليه بالمحسوس، إنها تعتبر فكرة الدين مجرد خيال فردي يعبر عن مشاعر دفينة في النفس البشرية لا تواجه الحواس وإنما تتعداها إلى عالم غير مرئي إنها بعبارة أخرى هروب من الواقع المرئي إلى واقع غيبي.

إن فكرة الدين وفق هذا المنظور تتماشى وفكرة دوركايم التي ترى أن: "الدين هو نظام متسق من المعتقدات والممارسات التي تدور حول موضوعات مقدسة يجري عزلها عن الوسط الدنيوي وتحاط بشتى أنواع التحريم. وهذه المعتقدات والممارسات تجمع كل المؤمنين والعاملين بها في جماعة معنوية واحدة"[24].

إن فكرة دوركايم هذه تعبر عن وجود وعي بالقدسي مغروس في النفس البشرية يعبر عن الخوف والانجذاب معا إلى عالم يختلف عن العالم الدنيوي تماما، أو بعبارة أخرى، أن الدين هو جزء لا يتجزأ من الطبيعة الإنسانية، وموجود معها منذ البداية وبينما تكون التعبيرات

---

[22] وجدي، محمد فريد. دائرة المعارف. – المجلد الرابع - دار المعرفة، الطبعة الثالثة، بيروت، 1971، ص: 111.

[23] السواح، فراس. دين الإنسان – بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الرابعة، دمشق، 2002 م، ص: 23.

[24] نفس المرجع. ص: 27.

الظاهرية عن الدين عرضة للتغير والتبدل مع الزمن، فإن التكوين السيكولوجي الذي يجعل الدين ممكنا عند الإنسان، ثابت لا يتغير.

وهنا نلاحظ أن الدين محل صراع بين المؤمنين والجاحدين وهو يعبر عن صنفين من الوعي:

1 – الوعي الإيماني: وهذا الوعي يتميز بالعمومية، وقد جاء مع تطور الإنسانية من عبادة الطوطم مرورا بتأليه القوى العلوية إلى وحدة الوجود.

2 – الوعي الاجتماعي: ويتميز بكونه نسبيا وهو من إفرازات الصراع الاجتماعي الذي عرفته التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية، ومن هذا التقسيم نفهم طبيعة الصراع حول حقيقة الدين، لكون الدين حقيقة غير فيزيائية يراد البرهنة عليها ماديا. وقد لا نحتاج إلى القول إنه إذا كان الدين يحتاج إلى إبانات فيزيائية فإنه يصبح طرفا في العلوم الطبيعية، التي عجزت عن الوقوف على معنى وطبيعة الإيمان بالغيبيات.

ولهذا يقال: "إن الإبانات الدينية ما هي إلا تعبيرات نفسية وتفسيرات عقلية تعلو على عالم الصور، وتستند إلى أساس عاطفي لا يستطيع الوعي إدراكها"[25].

وبغض النظر عن الصراع الدائر بين المؤمنين بالدين والجاحدين به، وكذا حقيقة الألوهية فإن الدين منذ بدء الخليقة يشكل اعتقادا فطريا يتعارض مع فكرة صنع الإنسان له، وهو يعبر عن حياة دينية جمعية، وتفكيرا عقلانيا تدرج من الأفكار الغيبية بسيطة التجريد، إلى الأفكار المعبرة عن الإيمان بالمطلق اللامتناهي، وكل ما سبق، ندرجه ضمن فكرة حصر الدين في رؤيتين إحداهما فطرية والأخرى تصورية.

الدين كأساس للمعتقدات الشعبية:

للدين مكانة كبيرة عند مختلف المجتمعات الإنسانية بما فيها المجتمعات البدائية والمتخلفة بوجه خاص. ويستمد مكانته من "تغليف نفسه بنوع من القداسة والتحريم، إذ يعتبر شيئا خارج التفكير والبحث. إن عدم التعامل الموضوعي والصريح مع الدين جعل التفكير فيه يقترن بالأساطير والخرافة. فالمستقرئ لتاريخ الحضارات الإنسانية وبواكير التجمعات الإنسانية يستدل على أن الدين جاء مقرونا بالأساطير حينا، وملتبسا بالوعي الخرافي حينا آخر، وهو ما يجعلنا نرى أن الدين والأسطورة وكذا السحر، شكلت الوعي الإنساني منذ أن

[25] ك. ج، يونج. الآلهة اليهودية- بحث في العلاقة بين الدين وعلم النفس- ترجمة: نهاد خياط، دار الحوار، الطبعة الأولى، اللاذقية، 1986، ص 07.

وطئت قدماه الأرض حتى الآن، برغم شيوع التفكير العلمي. لقد أدى الدين دورا هاما في صياغة الوعي الإنساني، ومن ثم بات قوة مؤثرة في البناء الفكري للمجتمعات الإنسانية وفي رؤية العالم، أي إنه أضحى جزءا لا يتجزأ من الفكر والممارسة الاجتماعية وإطارا للعقيدة والأخلاق وحتى التشريع"[26].

إن ارتباط الدين بالخرافة والأسطورة والسحر هو عامل جوهري في انحراف المعتقدات الشعبية التي تستمد وجودها في غالب الأحيان من سلطة الدين على الوعي الإنساني، عن الوجهة الدينية وفق أصول الديانات، إلى تفكير يغلب عليه الطابع الخرافي.

إن الاعتقاد الشعبي حول ضرورة ذبح القرابين في مناسبات دينية أحيانا، قد تحول إلى ضرورة الذبح في مناسبات اجتماعية، مثل حفلات الزواج، وحفلات النجاح في بعض المشاريع، للتعبير عن شكر الله على نعمه، أو استدرارا لعطف الله ورأفته وتعبيرا عن الخضوع في مناسبات أخرى مثل المرض أو الخوف من المصير المجهول، فنجد البعض يخرج قصعة من الكسكس وعليها قطع اللحم ليتصدق بها على الفقراء، في مناسبات الزواج أو التعبير عن الفرح بالنجاح في مشروع ما، أو عند الإقدام على بناء منزل أو حتى التعبير عن الفرح بالنجاح في الدراسة أو الحصول على شهادة علمية. وعادة الإطعام لا تقتصر على مناسبات الفرح بل تتعداه إلى مناسبات القرح أو الحزن، فعادة التصدق على الميت، والتصدق حينما يتعرض الإنسان لحادث سيارة وينجو منه، هي عادات يعرفها المجتمع الجزائري بكثرة.

الخاتمة:

إن هذه العادات لها أصول دينية ولكن المعتقدات الشعبية كثيرا ما تفرغها من القيم الدينية وتضفي عليها تفسيرات خرافية لا علاقة لها بالدين، ورغم ذلك كثيرا ما نجد هذه المعتقدات الشعبية تأخذ مكانها في حياة الناس بفعل العادة التي تروض الطبيعة البشرية فيتقبلها الناس دون مناقشة مدى فائدتها أو جدواها في الحياة العملية، وما يسمح بانتشارها والحفاظ عليها هو الأثر النفسي الإيجابي الذي تحدثه في أوساط الممارسين لهذه السلوكات، حيث إنها تترك شعورا بالرضى والطمأنينة بمجرد تجمع الناس استجابة لهذه الولائم المقامة، لأن هذه الأخيرة قد تكون عاملا مهما لمحو علاقات العداوة والتنافر الاجتماعي، كما قد تؤدي إلى تقوية عوامل التماسك الاجتماعي الضروري لاستمرار العلاقات الاجتماعية.

---

[26] توكاريف. الأديان في تاريخ شعوب العالم. ترجمة: أحمد فاضل، دار الأهالي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، دمشق 1998، ص: 05.

ومن كل هذا نصل إلى أن الدين سواء أكان منتشرا لدوافع نفسية أم لدوافع اجتماعية أم لدوافع أخرى فإنه يبقى مرتبطا بحياة الإنسان ارتباطا وثيقا ، حتى وإن حاول البعض تجاهله أو إنكار دوره في الحياة والادعاء أنه يمكن الاستغناء عنه.